مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 20، العدد 77 (شتاء 2009)، ص 49

الحرب الإسرائيلية على غزة

الياس حنا*

غزة بين التكتيك والجيوبوليتيك

تتناول هذه المقالة الحربَ على غزة من منظارين: منظار جيوبوليتيكي، وآخر استراتيجي، وتحاول أن ترصد ما جرى في غزة من الأعلى، أي برؤية شاملة، قبل أن تتعقب الوقائع الميدانية والسياسات، من الأسفل، أي بتفصيلاتها التكتية. وهذه المقالة تجمع الرؤية النظرية إلى الرؤية السياسية معاً، في محاولة لاستخلاص العبر العسكرية التي انتهت إليها الحرب على غزة، علاوة على استقراء التطورات الإقليمية والدولية التي ربما نجمت عن هذه الحرب، بما فيها مصير حركة "حماس" نفسها.

مقدمة

في علم الجيوبوليتيك، لا يهم من أنت، بل المهم أين أنت، وماذا تملك، وفي ماذا تؤثّر. فهذا العلم يعتمد على التبسيط، والنظرة من فوق إلى تحت، لكن شرطه الأساسي ليكون فعّالاً ومنتجاً، هو في ضرورة عدم إهمال جوهر الموضوع الجيوبوليتيكي، أي مركز الثقل.

وقد يكون ما جرى في العراق وسلوك الولايات المتحدة فيه خير مثال لذلك. ففي نظرة فوقية من الرئيس بوش تجاه العراق، اعتبر أن العراق سيستقبل جنوده بالورود، وأن أميركا هي المخلص للشعب العراقي. من هنا كانت سرعة إعلانه انتهاء العمليات العسكرية في العراق – إعلان النصر. لكن الواقع كان عكس المشتهى، فكان ما كان.

أين يكمن خطأ بوش؟

يكمن خطؤه في أنه أهمل مركز ثقل العراق الجيوبوليتيكي، أي ثقافة العراق وتاريخه وتركيبته الإثنية الدينية والمذهبية. وعندما وعى خطأه، كان التغيير في الاستراتيجيا، فكانت صحوة الأنبار التي أمّنت، على الأقل، استراتيجيا خروج لأميركا من المستنقع العراقي.

بعد الجيوبوليتيك، تأتي الجيواستراتيجيا، ثم تأتي العملانية، وأخيراً يأتي التكتيك. من هنا عنوان هذه الدراسة: "غزّة بين التكتيك والجيوبوليتيك". فالحرب على غزة حدثت بسبب موقعها، وبمقدار ما تؤثّر في محيطها المباشر. بكلام آخر، كانت الحرب عليها لأسباب داخلية إسرائيلية وفلسطينية، وأيضاً بسبب ترابطها ومدى تأثيرها في صورة التحالفات الجيوبوليتيكية الدولية، وخصوصاً التحالفات الإقليمية.

في هذه الدراسة سنتناول حرب غزة من زاوية جيوبوليتيكية، كما سنتناول المعضلة الإسرائيلية الأمنية الاستراتيجية، وكذلك معضلة "حماس". بعد ذلك سنتناول بالتفصيل الحرب على غزة، لنحللها تكتياً، ثم نستخلص العبر العسكرية منها. وأخيراً، سنلقي الضوء على صورة المرحلة المقبلة في ظل التغيرات الدولية والإقليمية.

الصورة الجيوبوليتيكية الكبرى

يبدو حتى الآن أن لحظة الأحادية العالمية بدأت تتفلت من يد العم سام، ونحن حتماً في اتجاه عالم متعدد الأقطاب، حتى لو كانت فيه أميركا هي الأولى بين متساوين.

لقد دخل أوباما البيت الأبيض وهو يواجه مشكلات عديدة وخطرة على أميركا، وعلى العالم أيضاً. فأميركا تراقب اليوم انهيار النظام الذي بنته بعد الحرب العالمية الثانية، إن كان بروتون وودن، أو الأمم المتحدة ومؤسساتها.

فما هي اهتمامات الإدارة الأميركية وأولوياتها اليوم؟

تتدرج الأولويات الأميركية بحسب الترتيب التالي:

1 – ضرورة حل الأزمة المالية سريعاً.

2 – ضرورة إيجاد استراتيجيا خروج للقوات الأميركية من العراق، ومن أفغانستان.

3 – كيفية التعامل مع روسيا العائدة بقوة.

هذا مع التذكير أنه كلما انشغلت أميركا بأمور ثانوية لا تتعلق باللعبة الكبرى فيما يختص بشكل النظام العالمي، كان الوقت متاحاً أمام القوى الكبرى المنافسة لتحسين أوضاعها، أي روسيا والصين.

وترتبط هذه الأولويات بعضها ببعض، كما يؤثّر بعضها في بعض. فالمال ضروري لتأمين آليّات ووسائل تنفيذ الاستراتيجيات، كما أن العراق مرتبط بإيران، وهذه بدورها مرتبطة بروسيا العائدة، الأمر الذي يأخذنا إلى الصورة الجيوبوليتيكية الصغرى – الإقليمية. فماذا عنها؟

الصورة الجيوبوليتيكية الصغرى – الإقليمية

عندما دخلت أميركا العراق بعظيم جيشها، فإنها، ومن دون أن تدري، دمجت البُعد الدولي بالبُعد الإقليمي. بكلام آخر، لأن أميركا كانت أحادية في ذلك الوقت، كان النظام العالمي يرتكز ويدور حول ما يجري في العراق، أي أن العالم أصبح يتحرك بحسب ساعة الأحداث العراقية.

لكن بعد التبدل الذي حصل في العلاقة بين الحكومة العراقية والولايات المتحدة، والمقصود هنا الاتفاقية الأمنية، بدأت أميركا تنفيذ استراتيجيا الخروج من العراق. لكن لهذا الخروج ثمناً تم دفعه، وهناك أثمان ستدفع بعد الانسحاب الكامل في سنة 2011، هذا إذا لم يُسرّع الرئيس أوباما عملية الانسحاب أكثر. فهل يمكن تجاهل الدور الإيراني في المساهمة في توقيع هذه الاتفاقية الأمنية؟ وهل يمكن تجاهل قلق العرب إزاء هذا التعاون الأميركي – الإيراني؟

تبدو الصورة الإقليمية على الشكل التالي:

(1) هناك محوران إقليميان حتى الآن هما:

أ. محور تقوده إيران يضم كل من: سورية؛ حزب الله؛ "حماس"؛ وغيرها.

ب. محور عربي آخر تقوده المملكة العربية السعودية ومصر – كل منهما يساهم فيما يخصه – وفيه أيضاً: الأردن؛ نصف لبنان؛ نصف السلطة الفلسطينية.

(2) في هذا الواقع، لا يزال العراق يبحث عن هوية جديدة، وسيأخذ ذلك وقتاً طويلاً، لكن الأكيد أن العراق الذي نعرفه لن يعود – فهناك تحول جذري.

(3) في هذه الصورة الإقليمية، تشكّل ما يسمى دول المثلث وهي: مصر وإيران وتركيا، وفي هذا المثلث تدور اللعبة الإقليمية، وخصوصاً أن هذه الدول كانت كلها إمبراطوريات تقريباً، ثابتة داخلياً بالمعنى السياسي. أمّا الدول التي تقع ضمن هذا المثلث، فهي التي تسعى لدور، أو كما يقال في علم التسويق "تموضع"، وتندرج سورية في هذا الإطار، لكن من دون نسيان الدور الإسرائيلي طبعاً.

ما هو التأثير المتبادل بين الصورتين؟

لأن الواقع الجغرافي يربط اللاعبين كلهم ضمن معادلة واحدة، يمكن القول إن شكل الصورة الكبرى يؤثر مباشرة في الصغرى. لكن كيف؟

لأن أولويات أميركا هي بحسب ما ذكرنا أعلاه، فإن العراق، كمسألة حيوية للإدارة الجديدة، أصبح من الماضي. ولأن الصعود الروسي سيكون الخطر الداهم على المصالح الأميركية، يبدو أن أميركا ستؤقلم – من كلمة إقليم – قضية العرب الأولى: فلسطين. وهذه الأقلمة ستكون من خلال توزيع الأدوار التي ستقوم بها دول المثلث المذكورة أعلاه. ولأن هذه الدول ستكون من صنّاع النظام الإقليمي الجديد، فإن كل واحدة منها تسعى لتجميع أكبر قدر ممكن من أوراق التأثير، وتندرج ورقتا لبنان وفلسطين – وأخيراً غزة – في هذا الإطار.

فما هو استراتيجي لـ "حماس" مثلاً، يقع في المستوى التكتي للقوى الإقليمية، وما هو استراتيجي للقوى الكبرى الإقليمية، هو تكتي للقوى العظمى – إذا صح التعبير.

معضلة إسرائيل الأمنية

تندرج معضلة إسرائيل الأمنية في ثلاثة أبعاد هي:

(1) الجغرافيا، لأنها تفتقد العمق والعرض الاستراتيجيَّين.
(2) الطوبوغرافيا، فهي تسعى دائماً للسيطرة على النقاط الأمنية المهمة لها، لأنها عندما تخطط، فإنها تخطط للسيناريو الأسوأ – من هنا كان مشروع المستعمرات المستمر في قضم الأراضي الفلسطينية.
(3) الديموغرافيا، فإسرائيل تشعر بالقلق إزاء العامل الديموغرافي الفلسطيني، سواء أكان من عرب 48، أم من عرب الضفة والقطاع.
من هنا، كانت إسرائيل تتراوح بين الامتداد الأقصى، في سنة 1967، إلى الانسحاب الأقصى حيث هي اليوم – حتى الآن على الأقل – وذلك مروراً بأشكال وأحجام مختلفة، وخصوصاً في جنوب لبنان.
فبعد 61 عاماً من تأسيس الكيان، عادت إسرائيل إلى المربع الأول. فهي بدأت حربها في الداخل الفلسطيني، ثم وسعته إلى الجوار، أمّا اليوم، فهي تقاتل في الداخل، هذا عدا إضافة الجدار العازل – جدار شارون.
وإذا كان اتفاق كامب ديفيد يؤمّن لإسرائيل منطقة عازلة عن مصر منزوعة السلاح هي سيناء، وإذا كانت اتفاقية وادي عربة مع الأردن تؤمن عازلاً آخر لإسرائيل هو أيضاً الصحراء الشرقية الأردنية، فإن أي اتفاقية بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ستضرب نواة الدولة الإسرائيلية، أي الضفة، وقسماً من الساحل، بالإضافة إلى منطقة شمال إسرائيل.
وعندما قررت إسرائيل عمليّتَي الانسحاب الأحاديتين من لبنان وغزة، لم تنعم بالأمن كما حلمت، حتى إنها عمدت إلى بناء الجدار العازل، على الرغم من أنه يخالف المفاهيم العسكرية الإسرائيلية الأصلية، التي تقوم على الحرب التي تعتمد على المناورة.(1)
يعتقد الخبراء الإسرائيليون أن المخاطر على الأمن القومي الإسرائيلي، تندرج في ثلاثة أبعاد هي:(2)
(1) الخنجر، والمقصود هنا هو العدو غير التقليدي – بكلام آخر، "الإرهاب" بحسب التوصيف الإسرائيلي.
(2) الصاروخ الباليستي، إذ عمد بعض الدول العربية إلى زيادة ترسانته من هذا السلاح بهدف تعديل ميزان القوى. أطلق العراق على إسرائيل في سنة 1991 ما يقارب الـ 39 صاروخاً. ولأن لإسرائيل قدرة صاروخية – ضمنها القدرة النووية، فقد شكّل هذا الأمر رادعاً مهماً للدول العربية، حتى نشأت المعادلة الجديدة في جنوب لبنان مع صواريخ حزب الله – كانت التجربة الأهم في حرب تموز/يوليو 2006، وأخيراً كانت في غزة.
(3) الدبابة، والمقصود بذلك الجيوش العربية التقليدية المشلولة منذ سنة 1973.

ماذا عن المستلزمات الجيوبوليتيكية الإسرائيلية؟

المقصود بالمستلزمات، تلك الشروط الواجب توفرها في استراتيجيا الأمن القومي الإسرائيلية، كي يستمر الكيان في الوجود، فما هي؟
(1) ضرورة الحفاظ على نواة الدولة الإسرائيلية آمنة، وتحت السيطرة الإسرائيلية المباشرة.(3) وتتمثل النواة في: أكثر من 90٪ من الضفة الغربية؛ قسم من الساحل، وخصوصاً في وسط إسرائيل، وذلك بالإضافة إلى مناطق شمال إسرائيل حيث المصادر المائية؛ أمّا غزة، فهي أقل أهمية وسنتناولها لاحقاً.
(2) استباق الخطر الداهم، عبر:
أ. ضرب العدو وتدميره إلى درجة لا يعود فيها قادراً على الحرب فترات طويلة.
ب. خوض الحرب على أرض العدو.
ج. عدم التورط في حروب استنزاف.
(3) ضرورة المحافظة على التفوق النوعي (Qualitative edge).
(4) ضرورة تأمين تغطية من جانب دولة عظمى قادرة – الولايات المتحدة الأميركية اليوم.
(5) منع العرب من تشكيل جبهة واحدة ضدها.
(6) ضرورة متابعة ومراقبة الدوائر الجغرافية الثلاث، وهي:
أ. دائرة المحيط المباشر – دول المواجهة وغيرها.
ب. الدائرة الإقليمية، اليوم إيران ومنطقة الخليج.
ج. الدائرة الثالثة، وتضم الهند وما بعدها.
(7) الحاجة إلى إبقاء الأمة تحت السلاح.
(8) أخيراً، ضرورة الحفاظ على الوحدة الداخلية.

ماذا عن الجيوبوليتيك الفلسطيني – وخصوصاً غزة؟

إذا كان الجيوبوليتيك يرتبط مباشرة بالجغرافيا حيث الدولة – الأمة، فإن الفلسطينيين، وحتى إشعار آخر، لا يملكون هذه الدولة.

وإذا كانت الدولة الأمة تقوم على أمة معينة – سياسية، أو ثقافية – فإن الشعب الفلسطيني منقسم على نفسه، حتى لو كان من أمة واحدة تقريباً.

وإذا كانت الحكومة وبشكل عام، تشكل أهم مُنفّذ لمصالح الدولة الأمة، فإن الواقع السياسي الفلسطيني هو في أسوأ أوقاته.

أمّا فيما يخص موضوع الشرعية، فإن هناك أيضاً اختلافاً جذرياً بين "حماس" والسلطة. فبحسب الشرعية الدولية، السلطة الفلسطينية هي الأساس. لكن لأن أجندة "حماس" المنتخبة مختلفة عن السلطة، لا بل لها أجندة تضرب أسس قيام السلطة الفلسطينية من الأساس، فهي اليوم متهمة بالانقلاب على السلطة. وهنا، ربما يجدر التمييز بين مفهومي الحق والقانون:

فالسلطة، وبحسب اتفاق أوسلو، تقبل بالحد الأدنى الجغرافي للدولة الموعودة – وذلك طبعاً، من دون إهمال النيات السيئة لإسرائيل (Minimalist).

أمّا "حماس"، فهي ترفض أوسلو، وهي ليست عضواً في منظمة التحرير، وهي تريد استرجاع فلسطين التاريخية (Maximalist). وإذا كانت "حماس" وافقت على دولة في الضفة والقطاع كحل مرحلي، فإن المرحلية هنا محطة تكتية من استراتيجيا كبرى، الأمر الذي يعيدنا إلى الهدف الأسمى، أي استرداد فلسطين التاريخية.

لكن المعضلة الأخطر على الدولة الفلسطينية الموعودة هي العامل الجغرافي. فهي أولاً، مقسمة جغرافياً: القطاع والضفة. وهي ثانياً، بين الأردن وإسرائيل فيما يخص الضفة، وبين إسرائيل ومصر فيما يخص قطاع غزة. وثالثاً، هناك تصدع في وحدة الشعب الفلسطيني على أبعاد مختلفة، أيديولوجية وغيرها، هذا عدا أولئك المشتتين في أصقاع العالم كافة. وأخيراً، حتى لو تأسست الدولة، فإن الضفة الغربية ستكون كيانات متفرقة بسبب وجود ما يُقارب الـ 270 ألف مستوطن يهودي.

يُضاف إلى هذه المعضلة، أن نواة الدولة الفلسطينية (The Core of the State)، والتي من المفروض أن تكون الضفة الغربية، هي أيضاً نواة دولة إسرائيل. من هنا الصراع المستمر، والتهرب الإسرائيلي من التخلي عنها.

في هذا الإطار، تفكر "حماس" أن هذه الدولة لن تكون قابلة للحياة.(4) ومن هذا المنظار، لا يمكن البقاء تحت رحمة إسرائيل، وفي الأبعاد كافة. وكي تتبدل هذه الأوضاع لمصلحة "حماس"، عليها أن تخوض حرباً مستمرة ضد الكيان الإسرائيلي حتى إزالته. كما أن عليها العمل، من جهة، على تبدل جذري في البعد الإقليمي عبر تغيير مواقف الدول العربية – وخصوصاً مصر. ومن جهة ثانية، تغيير المعادلة الدولية في موازين القوى، عبر عزل إسرائيل عن الحماية والدعم الدوليين – هنا الولايات المتحدة الأميركية. وإلاّ فما معنى الحملة على مصر؟ لكن يبقى السؤال عن كيفية التوازن الذي تقيمه حركة "حماس" بين الأهداف والوسائل.

الحرب على غزة

بغض النظر عن قبول التهدئة أو رفضها، فإن الحرب كانت قادمة لا محالة، على الأقل لمن يتابع التطورات والمؤشرات، هذا عدا حتمية الصراع بناء على التحليل أعلاه، وفي ظل الانسداد السياسي.

في توقيت الحرب وأوضاعها:

إذا غضضنا البصر عمّن بدأ الحرب أو أسس لها، فإن الحرب كانت ستقع في أي حال من الأحوال. وإذا اتهمنا إسرائيل بالتحضير للحرب منذ عامين، فقد يصح طرح السؤال عن سبب رفض "حماس" تمديد التهدئة على الرغم من معرفتها نيات إسرائيل. على كل، وقعت الحرب في الأوضاع التالية:

- المرحلة الانتقالية في الإدارة الأميركية.
- تزامن الحرب مع الأعياد في العالم الغربي.

- الحوار السوري – الإسرائيلي عبر تركيا.
- استقرار الوضع في لبنان – في الجنوب، بعد القرار 1701.
- الموقف الإيراني الإيجابي من الرئيس أوباما وتهنئته، وهذا أمر لم يحدث مع أسلافه.

في الحرب عملانياً:

في المكان الجغرافي نفسه، تتكرر المواجهة بين جوليات وداود.(5) لكن الفارق اليوم، هو في تبدل المواقع بين الشخصيتين. فبدلاً من أن يكون المقلاع بيد داود، في مقابل جوليات الأحدث تسليحاً، نرى المقلاع اليوم بيد جوليات الفلسطيني – "حماس" – في مقابل الـ "F-16" الإسرائيلية. وإذا كان داود انتصر في ذلك الوقت بمقلاعه، فإن نتيجة الحرب اليوم لم تحسم بشكل كامل.

إنها لعبة الركبي (Rugby) الأميركية حيث الصدمة وانعدام الليونة في مقابل كرة القدم حيث المخاتلة والمناورة والتمنع في بعض الأحيان من المواجهة.(6)

كيف قاتلت إسرائيل – إلى جانب الحملة الدبلوماسية؟

إن إسرائيل عادة، وعلى غرار الولايات المتحدة الأميركية، تتبع في قتالها النموذج نفسه – لكن كيف؟

- تعتمد إسرائيل على نقاط قوتها: سلاح الجو، وكل ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة.
- لذلك هي تعتمد نموذج الدوائر الخمس لاختيار أهدافها – سُمي بنك الأهداف (أنظر الرسم أدناه).(7) وتندرج الأهداف في: القيادات السياسية والعسكرية؛ البنى التحتية؛ القوى العسكرية؛ الشعب. هذا طبعاً بعد أن عدّلت إسرائيل النظرية كي تتلاءم مع وضع غزة.

الشكل

القوى العسكرية (FIELDED MILITARY)
الشعب (POPULATION)
البنى التحتية (INFRASTRUCTURE)
البنى التحتية الحيوية لمتابعة المعركة، والتي تتعلق بتصنيع السلاح والذخيرة والوقود مثلاً.
(ORGANIC ESSENTIALS) (e.g., ELECTRICAL POWR)
القيادة والسيطرة (LEADERSHIP)
تأثير مباشر (DIRECT EFFECT)

المصدر: U.S. ARMY WAR COLLEGE, Security Issues, vol. 1: Theory of War and Strategy, Part III, chapter 20,
http://www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pubs/display.cfm?PubID=870, 2, 2, 2009

- خاضت إسرائيل الحرب وفي ذهنها تجربة حرب لبنان، ومضمون تقرير فينوغراد، لكن – طبعاً – مع الفوارق الكبيرة بين المسرحين، اللبناني والفلسطيني، ذلك بأنها حضّرت للحرب منذ عامين، واتُخذ القرار منذ ستة أشهر.
- ولأن عقيدة إسرائيل القتالية تقوم في الأساس على سلاح الطيران والمناورة، وذلك ضمن الدوائر الخمس المذكورة أعلاه، فإن الاستعلام التكتي، وفي المصادر كلها، هو العمود الفقري لأي سلوك تكتي أو عملاني (Tactical Intelligence).(8) فالقنبلة الذكية تصبح غبية من دون معلومات دقيقة وآنية، وذلك لأن العدو غير تقليدي.
- بدأت إسرائيل حربها بمفاجأة تكتية لحركة "حماس" عبر غارات جوية مكثفة. بعد هذه المفاجأة، استمرت إسرائيل في حملتها الجوية بحسب الأهداف المنتقاة – الدوائر الخمس – وذلك بهدف فرض شلل استراتيجي على الحركة، وبالتالي فرض الحل السياسي عليها.

- بعد الحرب الجوية، ولأن سلاح الجو عادة لا يحسم المعركة، كان لا بد لإسرائيل من العملية البرية. (ترددت إسرائيل في حرب لبنان سنة 2006). واعتقد الكل أن العملية البرية ستتناول القطاع كله، بما فيه مدينة غزة حيث مركز ثقل "حماس".
- دخلت إسرائيل براً من ثلاثة محاور أساسية: الشمال والوسط والجنوب، وكان الهدف تقطيع القطاع، بالإضافة إلى تقطيع قوى حركة "حماس" بعضها عن بعض.
- لكن القصف الجوي ظل مستمراً، وذلك بحسب التغيرات الميدانية، وبحسب توفر معلومات تكتية عن أهداف محتملة.
- وهنا يجب التذكير بأن السيطرة الجوية هي لإسرائيل، فضلاً عن السيطرة المعلوماتية (Information & Air Dominance). فالطائرات من دون طيار تؤدي دوراً مهماً في جمع المعلومات الدقيقة – تُنقل بالفيديو إلى مراكز القيادة. هذا عدا المُخبرين من الداخل.
- طوّقت إسرائيل مدينة غزة والمخيمات كلها في الوسط وفي الجنوب.
- استمرت إسرائيل – ضمن مفهوم الدوائر الخمس – في قصف معبر رفح – ممر فيلادلفي – والأنفاق، وذلك لقطع الشريان الحيوي اللوجستي لـ "حماس".
- لم تدخل إسرائيل المدن، وهي لم تفعل ذلك في حروبها كلها تقريباً، عملاً بنصيحة المفكر العسكري الصيني الشهير سَنْ – تزو (Sun-Tzu). لكن كيف تصرفت:
  - قاتلت في الخطوط الخارجية (Exterior Lines)، أي في محيط الدائرة التي تحيط بمدينة غزة. وهذه الطريقة في القتال، تُشتت القوى وتُصعّب المهمة، لكن إسرائيل لديها إمكان تعويض الضعف في هذا النوع من القتال، فقط لأنها تملك الوسائل اللوجستية، كما أن جيشها يُعتبر جيشاً ليناً، مبنياً على المناورة والحركية.
  - أرادت وقف إطلاق الصواريخ، فكان الدخول من شمال القطاع حيث توجد المنطقة الأساسية لإطلاق الصواريخ.
  - كانت تقصف مدينة غزة بعد توزيع النشرات التحذيرية لأهلها رفعاً للعتب.
  - بعد القصف كانت القوات الإسرائيلية تتقدم مسافة قصيرة ثم تتراجع.
  - كان الهدف من هذا السلوك هو:
    - إبقاء زمام المبادرة في يد الجيش الإسرائيلي.
    - عدم إبقاء الجيش في أوضاع ثابتة، الأمر الذي يجعله هدفاً سهلاً لمقاتلي "حماس".
    - منع مقاتلي حركة "حماس" من تحضير أرضية الدفاع عن مدينة غزة – كزرع الأفخاخ والعبوات الناسفة.
    - أرادت إسرائيل إخفاء نياتها العسكرية عن "حماس"، كي لا تعرف هذه الأخيرة أين سيكون الجهد الرئيسي للجيش الإسرائيلي.
    - بكلام آخر، أرادت إسرائيل استنزاف الحركة بدلاً من أن تُستنزف هي.

قياس النجاح:

إن قياس النجاح يتعلق بالأهداف التي أُعلنت؛ وفي هذا الإطار، ظلت إسرائيل متكتمة ومتواضعة فيما يخص الأهداف، وهذا أحد دروس حرب لبنان. ومع أن المقاييس التي تُعتمد لقياس النصر في حرب ضد عدو تقليدي قد لا تنطبق على عدو غير تقليدي – حزب الله وحركة "حماس"(9) – فإن إسرائيل تعتبر عمليتها ناجحة إذا حققت ما يلي:

- وقف إطلاق الصواريخ بالكامل، أو على الأقل، إلى حد مقبول بالمعنى السياسي الداخلي.
- إيجاد واقع جديد تُفرض بواسطته آلية مراقبة وضبط محكمة لمعبر رفح.
- ضرب "حماس" عسكرياً إلى درجة تجعلها غير قادرة على النهوض، وخصوصاً إذا ضُبط معبر رفح. فإسرائيل في قرارة ذاتها، تريد إبقاء "حماس" ضد السلطة الفلسطينية بالمعنى السياسي.
- تريد إسرائيل الخروج من المعركة بأقل عدد ممكن من القتلى العسكريين – وقد حققت ذلك.
- تريد تحرير الجندي الأسير غلعاد شاليط.

● بكلام آخر، لا تأبه إسرائيل بالقطاع، لكنها تهتم بمن هو في القطاع، وما هي أهدافه، وما هي تحالفاته، وماذا يملك من وسائل تهدد خلفية نواة الدولة الإسرائيلية – هنا الضفة الغربية وقسم من الساحل شمال القطاع.

● أخيراً، تريد إسرائيل استرداد صورة الردع لجيشها، ولا سيما بعد الفشل في حرب تموز/يوليو.

وهنا لا بد من فتح نافذة عن مفهوم الردع لشرحه. فماذا عنه؟

– يهدف إلى منع العدو من القيام بما يريد أن يقوم به، وإلاّ فإن العقاب وتكلفته هما أكبر من الأرباح المنتظرة.

– على الرادع أن يملك وسائل الردع – هنا إسرائيل.

– على المردوع أن يقتنع ويعرف سلفاً أن الرادع سيستعمل وسائله.

– على الرادع أن يظهر قوة ردعه في مكان ما – الهدف هو إظهار النموذج، وقد فعلت إسرائيل ذلك عبر ضرب أهداف في سورية مثلاً، عقب حرب تموز/يوليو سنة 2006.

– يُبنى الردع بالتكرار والتراكمات – البعد السيكولوجي. وهذا ما فعلته إسرائيل مع العرب عبر الحروب المتكررة وردات فعلها العنيفة.

– أخيراً، على الرادع أن يطمئن المردوع أنه بأمان، ما دام لا يخرق قواعد اللعبة – وهذا بُعد غير متوفر في منظومة الردع القائمة بين "حماس" وإسرائيل.

كيف قاتلت "حماس":

تُعتبر "حماس" الفريق الأضعف في هذه المعادلة، وهي قاتلت على الشكل التالي:

● امتنعت من المواجهة المباشرة نظراً إلى الخلل الكبير في ميزان القوى.

● اعتمدت على حرب المدن، وخصوصاً أن لهذه الحرب ديناميكياتها الخاصة بها، كما أن لها قواعدها قوانينها.(10) فالجيوش التقليدية، إذا لم تكن معدة لقتال المدن والشوارع، فإنها ستتكبد كثيراً من الخسائر. فما هي خصائص هذه الحرب؟

– تزيد أبعاد المعركة (New Dimensions).

– توزع القوى، كما تجعل عملية القيادة والسيطرة أصعب.

– تقرّب المسافات بين المقاتلين والمدنيين.

– تبدّل مقاييس النصر والنجاح.

– تؤمّن للفريق الضعيف عامل توازن وتوازٍ (11).(Equalizer)

● سمحت للجيش الإسرائيلي بالدخول براً إلى الأماكن التي لا يمكن مواجهته فيها، والتصدي له في حال أراد دخول المدن.

● استمرت في الوقت نفسه، في إطلاق الصواريخ على المستعمرات الإسرائيلية.

● هذا عدا – طبعاً – الحملات الإعلامية وكسب الوقت.

● أخيراً، قاتلت "حماس" فيما يُسمى الخطوط الداخلية (Interior Lines)، وخصوصاً في مدينة غزة، أي من الداخل إلى أطراف المدينة. وهذا القتال يساعد الدفاع بشكل عام.

قياس النجاح:

تقيس "حماس" نجاحها على الشكل التالي:

● إذا لم تخسر وتُدمَّر نهائياً، فهي رابحة (Survival).

● إذا استطاعت الصمود، وكسبت الوقت، وأنزلت أكبر قدر ممكن من الخسائر البشرية بصفوف العدو.

● إذا حافظت على قدر معين من ترسانتها.

● إذا استمرت في إطلاق الصواريخ، أو التهديد بالإطلاق.

● أخيراً، إذا التف الشعب حولها بعد انحسار غبار المعركة – سياسياً. أمّا اتهام "حماس" – أو حزب الله – مثلاً بأنها تستعمل الدروع البشرية، فهذا أمر لا يمكن للحركة أن تتخلى عنه. فالشعب هو العمود الفقري لاستراتيجيا "حماس"، أو حتى حزب الله. لكن يبقى السؤال إلى أي مدى يمكن أن يتحمل الشعب.

في بعض الاستنتاجات من هذه الحرب:

● من المعروف في علم الحرب أنه لا يمكن للتكتيك الناجح أن يعوِّض في حال كانت الاستراتيجيا فاشلة. فهل ينطبق هذا الأمر على الفريقين؟ وكيف ستحوّل إسرائيل مثلاً، ما أنجزته عسكرياً، إلى آلية حل سياسي؟ وفي المقابل، هل يمكن لـ "حماس" أن تكرر كل يوم ما فعلته في غزة؟

● يقول ماو تسي تونغ، إن المقاومة هي السمكة التي تسبح في بحر الفلاحين – الشعب.(12) وكي تنتصر الدولة – الأمة على المقاومة، عليها أن تعزل الشعب عنها. هكذا فعلت بريطانيا في ماليزيا في الخمسينيات ونجحت. فهل يمكن لإسرائيل أن تفعل هذا؟ كلا – طبعاً. فهي بدلاً من الفصل بين الاثنين، تعمد إلى تدمير أحدهما على الآخر – جنوب لبنان سنة 2006، غزة 2008 – 2009. فهل يمكن التكرار في هذا المجال؟ ومن جهة أُخرى، هل يمكن لـ "حماس" أن تأخذ الشعب الفلسطيني إلى أمر مماثل كل فترة من الزمن؟

● يتحدث الخبراء بعد حرب لبنان وغزة عمّا يسمى "عقيدة الضاحية"، أي التدمير الكامل لمن يجرؤ على الاعتداء على إسرائيل، كأنها شيء جديد مبتكر. فمَن يتابع حروب إسرائيل، يستطيع الاستنتاج أنه، وفي كل حرب خاضتها إسرائيل ضد العرب، كان هناك "عقيدة ضاحية". بكلام آخر، هذه العقيدة هي جزء أساسي من حروب إسرائيل، لأنها تملك القدرة التدميرية العالية، وتخاف من الخسائر البشرية. ألم تكن بيروت في سنة 1982 مثل الضاحية في سنة 2006؟

● يبقى الأكيد أن على إسرائيل أن تعمد دائماً إلى اعتماد عقيدتين عسكريتين متلازمتين إحداهما مع الأُخرى. واحدة تقليدية ضد الجيوش التقليدية، وأُخرى ضد عدو غير تقليدي. على كل، هذا أمر يقلق أغلبية الدول الغربية، وخصوصاً أميركا.(13)

● في عملية القتال المستمر بين القوى التقليدية وغير التقليدية، يصل الأمر بالاثنتين إلى الاقتراب أكثر إحداهما من الأُخرى في كيفية القتال، إنها عملية التناضح، أي أوزموسس (Osmosis). فيصبح الجيش التقليدي أكثر لا تقليدية، والعكس صحيح. ألم يتحول حزب الله إلى جيش تقليدي تقريباً، هذا مع العلم بأنه خاض حرب تموز/يوليو وهو أكثر قرباً من الحرب التقليدية؟(14)

● أثبتت الحرب أن المنظمات غير التقليدية تتعلم من تجارب غيرها. فقد تعلم حزب الله من دروس فيتنام، وتعلمت المقاومة العراقية من تجربة حزب الله، كما أن "حماس" تعلمت من تجربة حرب تموز/يوليو 2006. وهنا، يجب التشديد على أن لكل حرب أوضاعها الخاصة بها. وفي هذا الإطار، لا يمكن لـ "حماس" أن تقلد حزب الله 100٪ تحت شعار المقاومة، ذلك بأن مسرحَي الحرب، والأوضاع الخاصة بكل واحد، تختلف تماماً عن الآخر – الجغرافيا والتاريخ. في فيتنام كانت الأدغال، في لبنان كان الريف والتلال والقرى، في العراق كانت حرب الطرق وبعض المدن. أمّا في غزة فهي فقط ضد المدن والمخيمات، ومن دون أعماق استراتيجية ومكونات صمود، ولا سيما بالمعنى اللوجستي، وخصوصاً إذا كانت "حماس" معادية لمصر – كما لو أن حزب الله يعادي سورية مثلاً.

● وعلى غرار حرب غزة، ستكون الحروب المقبلة للضعفاء في المدن والشوارع. ففي سنة 2010 سيعيش 75٪ من سكان العالم ضمن المدن الكبرى (Mega Cities)، وهذا عامل سيغير جغرافيا الحرب بشكل كامل، الأمر الذي يعيدنا إلى عقيدة الضاحية. ألم تدمر فرنسا الجزائر خلال حرب التحرير؟ ألم تدمر روسيا مدينة غروزني عاصمة الشيشان كي تضرب المقاومة فيها؟

● لم تواجه إسرائيل مفاجآت عسكرية من جانب "حماس" على غرار إصابة حزب الله البارجة "حانيت" في سنة 2006 – يُقال إن الحركة استعملت الصاروخ نفسه الذي استعمله حزب الله ضد البارجة، أي "C-802"، لكن من دون نتيجة. لم تقصف "حماس" العمق البعيد لإسرائيل، والأبعد كان بئر السبع، 25 ميلاً.

● في هذا النوع من الحروب، تكون نسبة الدمار عالية جداً، وكذلك التكلفة المالية – في لبنان أكثر من 4 مليارات دولار، في غزة نحو 2 مليار دولار كخسائر مباشرة، هذا عدا الخسائر البشرية – 1300 شهيد فلسطيني وأكثر من 5000 جريح – والخسائر في البيئة وغيرها من النواحي الاجتماعية.

● تأتي حرب غزة كنموذج ثان بعد عامين من حرب تموز/يوليو 2006. ويمكن القول إن هناك نموذجاً قتالياً بدأ يتشكل ويتكرر (Doctrine and Weapon System). وإذا ما تكرر بعد ليصبح نمطاً ناجحاً، فمن الممكن القول إنه، وعبر التجربة والخطأ (Trial and Error)، وعبر الصدام المتكرر (Osmosis)، توصل فريق يُدعى المقاومة إلى طريقة ناجحة غير تقليدية للصمود، وعدم الخسارة أمام الجيش الإسرائيلي الأكثر حداثة بين جيوش المنطقة وحتى العالم. وهذه الطريقة تقوم على:

- الاحتماء من نقاط قوة العدو – هنا الطيران – بهدف الاستمرار في القتال.
- ضرورة الصمود، إذ ليس من الضروري أن يكون هناك معركة فاصلة للحسم، كما ليس ضرورياً أن يكون هناك نصر.
- المهم بعد انحسار غبار المعركة أن تستمر المقاومة (Survival)، ومن هنا أهمية الخطاب التعبوي، وخصوصاً من منظار ديني يضع الشهادة والتضحية في أبعاد مختلفة عن الصراع العلماني – القومي.
- إن مهمة الصمود وعدم المجابهة المباشرة مع العدو، هي كسب الوقت كي تقوم المنظومة الصاروخية بعملها، فتضرب العمق الجغرافي الاستراتيجي للعدو.

● أخيراً، ولأنه لا يمكن لإسرائيل أن تخسر حرباً واحدة، أو تُعطي عن نفسها صورة الضعف لأعدائها، فهي مضطرة إلى خوض الحرب باستمرار. وإذا ما تعثرت أو فشلت، فهي ملزمة بخوض حرب جديدة كي تصحح أخطاء الحرب الماضية. وبذلك، تكون إسرائيل في جو الحروب المستدامة.

● لكن نجاح هذا النموذج، يتطلب أوضاعاً جغرافية واجتماعية وسياسية كي ينجح. من هنا صعوبة نسخه وتقليده في غير الساحتين اللبنانية والغزاوية – القرب الجغرافي مثلاً. هذا مع العلم بأن أوجه الاختلاف بين ما جرى في لبنان وما جرى في غزة، هي أكثر كثيراً من أوجه التشابه والتلاقي.

خاتمة

لا يهم كيفية تصوير النصر، فلكل فريق مقاييسه الخاصة به. فإذا ما قالت إسرائيل لـ "حماس" أنها قتلت كثيراً من مقاتليها، فقد يكون رد الحركة أن مقاتليها شهداء طلبوا الشهادة طوعاً، وأنهم ليسوا خسائر بالمعنى الشائع للكلمة. لكن الأمر يتعلق بالغد، وبالمستقبل، وبكيفية رسم الاستراتيجيات، وخصوصاً أن الاستراتيجيا توضع عادة لخدمة سياسة معينة، وهي، أي الاستراتيجيا، فكرة تعمل على وصل الأهداف بالوسائل. وانطلاقاً من هذا التعريف، ربما يبقى السؤال: ما هي استراتيجيا "حماس"؟ وأي سياسة ستخدم هذه الاستراتيجيا، ولا سيما أن ما تطلبه الحركة من إسرائيل قد يعني زوال إسرائيل، وأن ما تطلبه هذه الأخيرة من "حماس"، قد يعني زوال "حماس" (Zero Sum Game).

وفي ظل هذه المعادلة المستحيلة، وفي ظل عدم حدوث أي تحول جذري في المنطقة كتغيير مصر لاستراتيجيتها، أو أي تحوّل جذري في الموقف الأميركي الراعي والضامن لأمن إسرائيل، فقد تصبح المأساة قابلة للتكرار، وفي الوقت القريب. ■

(*) مدرّس مادة الجيوبوليتيك في جامعة سيّدة اللويزة – لبنان، وباحث استراتيجي، وعميد ركن متقاعد.

المصادر

(1) "The Wall of Sharon", http://www.stratfor.com/analysis/wallsharon, 5/8/2003.

(2) Eliot A. Cohen; Michael Eisenstadt; Andrew J. Bacevich, *Knives, Tanks, and Missiles: Israel's Security Revolution* (Washington D.C.: Washington Institute for Near East Policy, 1998).

(3) محاضرات للكاتب غير منشورة، تدرّس في مادة الجيوبوليتيك في جامعة سيدة اللويزة – لبنان.

(4) George Friedman, "The Geopolitics of the Palestinians". http://www.stratfor.com/analysis/20090113geopoliticspalestinians, 31/1/2009.

(5) George and Meredith Friedman, *The Future of War* (New York: St. Martin Press, 1996), p. 20.

(6) http://www.au.af.mil/au/awc/awcgate/documents/footballsoccer.pdf, 2/2/2009.

(7) http://www.airpower.maxwell.af.mil/airchronicles/cc/smith.html, 2/2/2009.

(8) Amos Harel and Avi Issacharoff, "Intel sources: Gaza informants compromised by sloppiness*", Haaretz*, 29/1/2009.

(9) James Clancy and Chuck Crossett, "Measuring Effectiveness in Irregular Warfare".
http://www.carlisle.army.mil/usawc/parameters/07summer/clancy.pdf, 2/2/2009.

(10) Michael Desch, "Soldiers in Cities: Military Operations on Urban Terrain".
http://www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pdffiles/PUB294.pdf

(11) Ibid., pp. 5-6.

(12) http://www.answers.com/topic/mao-zedong, 2/2/2009.

(13) Colin S. Gray, "After Iraq: The Search for a Sustainable National Security Strategy".
http://www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pubs/display.cfm?pubID=902, 13/1/2009.

(14) Stephen D. Biddle; Mr. Jeffrey A. Friedman, "The 2006 Lebanon Campaign and the Future of Warfare: Implications for Army and Defense policy".
http:www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pubs/display.cfm?pubID=882, 2/2/2009.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx